﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنعام: 35]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الـرّبـطُ بين التّسلِيةِ والتّسرية، وبين التّأكيدِ على مجافاةِ الأسَى والقُنوطِ

لَمَّا حَمَلَ سياقُ الآيةِ السّابقةِ تسليةً لرسولِ ﷺ، بإيراد سُنَّةِ الله الثَّابتةِ، بتأييد أنبيائه، ونصرهم على أقوامهم المكذِّبين، جاءَ سياقُ الآيةِ الكريمةِ هنا مُخاطِبًا رسولَ الله ﷺ، أنَّه إنْ آلَمَهُ إعراضُ قومِه عن دعوتِه، فليفعلْ على سبيل الفَرَضِ ما يجعلُهم يُؤمنونَ بدعوتِه، وليكن بأن يأتيَهم بآيةٍ منَ الأرض، أو بآيةٍ منَ السَّماء تكونُ أفضلَ ممّا آتاهُم به من آيةِ القرآن أو غيرِها منَ الآيات، لكنَّ أمرَ هدايتِهم أو عدمِها موصولٌ بمشيئة الله لا غيرَ، فما يزال الخطابُ لرسولِ الله ﷺ، ولكنْ في الآية السّابقةِ تسليةٌ ووعدٌ بالنّصر، وفي الآيةِ اللّاحقةِ (ههنا) تنبيهٌ على عدمِ الإفراطِ في الأسَى عليهم؛ لأنّه لا يكونُ من أمرِ هدايتِهم إلّا ما قدّرَهُ الله.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كَبُرَ﴾: الكبيرُ والصَّغيرُ منَ الأسماء المُتضايفَة الَّتي تُقالُ عندَ اعتبارِ بعضِها ببعض، فالشَّيءُ قد يكونُ صغيرًا في جَنْبِ شيءٍ، وكبيرًا في جَنبِ غيره.. وأصلُ ذلك أن يُستعمَلَ في الأعيان، ثمَّ استُعيرَ للمعاني، كما في قولِه تعالى: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف: 49]، والكبيرةُ متعارَفَةٌ في كلِّ ذَنبٍ تعظُمُ عُقوبتُه، وتُستعمَلُ الكبيرةُ فيما يَشُقُّ ويَصعُبُ، نَحْوِ: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [البقرة: 45]، ومن هذا المعنى ما نحن بصددِه في تفسير قولِه تعالى: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ [الأنعام: 35]، فهي كذلك

فيها معنى: عَظُمَ ذلك، وشَقَّ عليك يا محمَّد ﷺ، وفيه بيانُ عِظَم الإعراض عنِ الحقِّ وعِظَم عُقوبتِه[1].

2) ﴿إِعْرَاضُهُمْ﴾: أَعرَضَ: أَظهرَ جانبَه؛ أي: ناحيَتَه، فإذا قيلَ: أَعرَضَ لي كذا؛ أي: بدا عَرضُهُ فأَمكنَ تَناولُه، وإذا قيلَ: أَعرَضَ عنّي؛ أي: ولَّى مُدبرًا عَرضَه، كما قالَ تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ﴾ [النّساء: 63]، وهو المعنى المرادُ في الآية الَّتي معنا: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾؛ أي: تولّيهم عنِ الحقِّ، وإدبارُهم عن دَعوتِك[2].

3) ﴿تَبْتَغِيَ﴾: الباء والغين والياء أصلان: أحدُهما: طَلَبُ الشَّيءِ، والثّاني: جنسٌ منَ الفساد، فمنَ الأوَّل – وهو ما يُعنينا هنا – : بَغَيتُ الشَّيءَ أَبغيه: إذا طَلَبتُه، وأبغيتُكَ الشَّيءَ: إذا أَعَنتُكَ على طلبه، والبُغيَةُ والبِغيَةُ: الحاجَة، وتقولُ: ما يَنبغي لك أن تفعلَ كذا، وهذا من أفعال المطاوَعة، تقولُ: بَغَيتُه فابتغَى، كما تقولُ: كَسَرتُه فانكَسَر[3]، ويُقال: ابتغى الأجرَ وغيرَه: أراده وطلبَه، وتصدَّق ابتغاءَ مرضاةِ الله، قال تعالى: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾ [المائدة: 2]، ويُقال ابتغى الرَّجلَ: صحبَه، قال تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ۝٥٥﴾ [القصص: 55][4].

4) ﴿نَفَقًا﴾: النَّفَقُ: المُرادُ به سَرَبٌ في الأرض له مَخلَصٌ إلى مكانٍ، ومنه اشتقاقُ النِّفاقِ؛ لأنَّ صاحبَه يَكتُمُ خلافَ ما يُظهِرُ، فكأنَّ الإيمانَ يخرجُ منه، أو يخرُجُ هو منَ الإيمان في خفاءٍ، ويمكنُ أنَّ الأصلَ في الباب واحدٌ، وهو الخروجُ، والنَّفَقُ: المَسلَكُ النّافذُ الَّذي يُمكنُ الخروجُ منه[5]، وفي الصّحاح والتّهذيب: له مَخلَصٌ إلى مكانٍ آخرَ. ومنه قولُه تعالى: ﴿فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ﴾[6] وفي المثلِ: (ضَلَّ دُرَيْصٌ نَفَقَهُ)؛ أي: جُحره، والنّافِقاء: إحدى جِحَرَةِ اليربوع، يكتُمها، ويُظهرُ غيرَها، وهو موضعٌ يرقّقه، فإذا أُتيَ من قِبَلِ القاصِعاء ضربَ النّافِقاءَ برأسه فانْتَفَقَ، أي: خرَ، والجمعُ النّوافِقُ[7].

(1) الرّاغب، المفردات: (كبر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عرض).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بغي).
(4) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (بغي).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نفق).
(6) الزَّبيديّ، تاج العروس: (نفق).
(7) الجوهريّ، الصّحاح: (نفق).

5) ﴿سُلَّمًا﴾: السُّلَّمُ: مشتقٌّ من السَّلامَةِ، وهو الشّيءُ الّذي يُسلّمُك إلى مصعدك[1]، السّلّمُ الدّرجةُ والمرقاةُ، يذكّر ويؤنّث، قال ابن مُقبل:

لا تُحْرِزِ المَرْءَ أَحْجاءُ البِلادِ، ولا *** يُبْنَى لَهُ في السَّماواتِ السَّلاليمُ

والسُّلَّمُ: السّببُ إلى الشّيء، سُمّي بهذا الاسْم، لأنّه يؤدّي إلى غيره، كما يؤدّي السّلّمُ الّذي يُرتقى عليه، قال الجوهريّ: وربّما سُمّي الغرْزُ بذلك[2]، والسُّلَّمُ أيضا ما يُتوصَّلُ به إلى الأمكنةِ العالية، فيُرْجَى به السَّلامةُ، ثمَّ جُعِلَ اسْمًا لكلِّ ما يُتوصَّلُ به إلى شيءٍ رفيعٍ كالسَّببِ، قالَ تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِۖ﴾ [الطّور: 38][3]. والسُّلَّمُ من السَّلامةِ، وهو الَّذي يُسلِّمكَ إلى مَصْعدِك[4]، وقولُه تعالى في الآية هنا: ﴿أَوْ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾، أي: دَرَجًا ومَصْعدًا في السَّماء فَتَصْعَدَ فيه[5].

6) ﴿ٱلْجَٰهِلِينَ﴾: الجهلُ نقيضُ العلم، تقول: جهلتُ الشّيءَ جهلًا وجهالةً واستجهلتُ الرّجلَ: جعلتَه جاهلًا[6]، والجهلُ على قسمين: بسيطٌ ومركّبٌ، فالبسيط: عدمُ العلمِ عمّا من شأنِه أن يُعلمَ، والمركّبُ: اعتقادٌ جازمٌ غيرُ مطابقٍ للواقع[7]، وقال الرّاغبُ: الجهلُ على ثلاثةِ أَضْرُب: الأوَّلُ: خُلوُّ النَّفْسِ منَ العلْمِ، هذا هو الأصل. والثّاني: اعْتقادُ الشَّيءِ بخلافِ ما هو عليه. والثّالثُ: فعلُ الشَّيء بخلافِ ما حقُّه أنْ يُفعل، سواء اعْتقدَ فيه اعْتقادًا صحيحًا أو فاسدًا. والجاهلُ تارةً يُذكَرُ على سبيلِ الذَّم، وهو الأكْثَر، وتارةً لا على سبيلِ الذَّمّ، نحو: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ [البقرة: 273] أي: من لا يعرفُ حالَهم، وليس يعني المتخصِّصَ بالجهلِ المذموم[8]. وقولُه تعالى هنا: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ أي: مِنَ الَّذين يجهلونَ ذلك – أي: قولَه: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰۚ﴾ – ، ويَرومون ما هو خلافُهُ[9].

(1) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/244.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (سلم).
(3) الرّاغب، المفردات: (سلم).
(4) الزَّجاج، معاني القرآن: 2/244.
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/122.
(6) ابن سيده، المخصّص: (جهل).
(7) الزَّبيديّ، تاج العروس: (جهل).
(8) الرّاغب، المفردات: (جهل).
(9) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/16.

❁ المَعْنَى الإجْمَالِيُّ:

الله هو الهادِي بالحقّ وإلى الحقّ، والرّسولُ مبلّغٌ ودالٌّ على الحقّ

يُخبرُ اللّهُ تعالى نبيَّه ﷺ قائلًا: إنْ شقَّ عليكَ إعراضُ المكذِّبين؛ لشدَّة حرصِكَ على إيمانهم، فابذُلْ وُسعَكَ في ذلك، فليس بمَقدورِكَ أن تهديَ مَن لم يُرِدِ اللّهُ هدايتَه، حتَّى لو دخلتَ نَفَقًا في الأرض أو صَعِدْتَ سُلَّمًا في السَّماء ليكونَ ذلكَ سبيلًا لهدايتِهم، فإنَّ ذلك لن يُفيدَ مَن عاندَ الحقَّ شيئًا، ولكنَّها حكمةُ اللّه تعالى اقتضَتْ بقاءَهم في الضَّلال، فلا تكنْ يا محمَّدُ ﷺ مِنَ الَّذين لا يَعرِفونَ حقائقَ الأمور، ولا يُنزلونَها على منازلِها[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بيانُ معنَى (الواو) في تجليةِ المعنى، في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾:

لا مَناصَ منَ الصّبر، إذ لا رادَّ لقدَرِ الله، ولا فرارَ مِن حُكمِه

هذا كلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لتأكيدِ إيجابِ الصَّبرِ المُستفادِ منَ التَّسليةِ، ببيانِ أنَّه أمرٌ لا مَحيدَ عنه أصلًا؛ لأنّ ما كبُر على النّبيّ من إعراضهم سوف يَشقُّ على نفس النّبيّ ﷺ، ويكونُ سببًا في إيلامه، وتعكّرِ حالِه، ولكنّه لا يُغيّرُ من حقائقِ القدَر شيئًا، والسّياقُ مرتبطٌ في معناه بما بعدَه، إذ يؤكّدُ للرّسولِ المتأثّرِ بحالِهم، والحزينِ على مآلهم؛ بأنّه مهما ابتغى نفقًا في الأرض أو سلّمًا في السّماء فسيبقون على ما قدّر الله لهم، ولا رادَّ لحُكم الله.

دلالةُ المَجاز المُرسَل، في قولِه تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾:

تصويرُ مشقّةِ الحيرةِ، وثِقلِ الحُزنِ، على قلبِ الرّسولِ ونفسِه

ومعنَى ﴿كَبُرَ﴾ هنا: شَقَّ عليك، وأصلُه عِظَمُ الجُثَّةِ، فهو يُستعمَلُ في الأعيان، ثمَّ استعيرَ للمعاني - كما هو هنا - حيثُ استُعمِلَ مجازًا في الأمور العظيمةِ الثَّقيلة؛ لأنَّ عِظَمَ الجُثَّة يَستلزمُ الثِّقَلَ، ثمَّ استُعمِلَ مجازًا في معنى (شَقَّ)؛ لأنَّ الثَّقيلَ يَستلزمُ مَشقَّةَ حَمْلِه، فهو مجازٌ

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 209 - 210.

مُرسَلٌ[1] بلُزومَين[2]، والمعنى: "إنْ كان قد شقّ عليك انصرافُهم عن دعوتك، فإنِ استطعتَ أن تتّخذَ طريقًا في باطن الأرض، أو سلّمًا تصعدُ به إلى السّماء، فتأتيهم بدليلٍ على صدقك، فافعل، ليس في قدرتك ذلك يا محمّد، فأرِحْ نفسَك، واصبرْ لحُكم اللّه"[3]، وقد كان الاستعمالُ المجازيُّ مؤدّيًا غرضَه، من إيضاحٍ لتصوير مشقّةِ الحَيْرةِ، وثِقل الحُزن المُطبقِ، على صدر النّبيّ الرّحيم ونفسِه، وهو أمرٌ لا حيلةَ له فيه؛ لأنّه بيد اللّه وحده دون سواه، جلّ في علاه.

نكتةُ تعديةِ الفعلِ (كبُرَ)، بأداةِ الاستعلاءِ (على)، في الآيةِ الكريمةِ:

مُعاناةُ رسولِ اللّه ﷺ من إعراضِ المُشركين ومضايقاتِهم

عدَّى بيانُ اللّهِ الفعلَ ﴿كَبُرَ﴾ بأداة الاستعلاء (على)، فقال: ﴿كَبُرَ عَلَيْكَ﴾؛ لبيانِ عِظَمِ ومَشقّةِ هذا الأمرِ على رسولِ اللّهِ ﷺ وهو إعراضُهم عن دعوتِه وتكذيبُهم لها، فجاءَ هذا البيانُ على طريقةِ الاستعمالِ المجازيِّ، حيث إنَّ كَبُرَ هنا بمعنَى شقَّ عليك، وأصلُه عِظَمُ الجُثَّة، ثمَّ استُعمِلَ مجازًا في الأمورِ العظيمةِ الثَّقيلةِ؛ لأنَّ عِظَمَ الجثَّة يستلزمُ الثِّقَلَ، ثمَّ استُعمِلَ مجازًا في معنَى (شقَّ)؛ لأنَّ الثَّقيلَ يَشُقُّ حَملُه، والحِمْلُ يكونُ غالبًا على الظَّهرِ فينوءُ به حاملُه ويَستصعِبُه، فهو مجازٌ مرسلٌ بلزومَيْن[4].

سِرُّ استعمالِ مادّةِ الإعراضِ دونَ غيرِها في قولِه تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾:

الإعراضُ هو التَّولِّي والإدبارُ التَّامُّ عن دعوةِ الرَّسولِ ﷺ

آثرَ بيانُ اللّهِ استعمالَ كلمةِ الإعراضِ دونَ ما يُقاربُها في المعنَى؛ لأنَّ إعراضَ المشركين هو حالةٌ أُخرى غيرُ حالةِ التَّكذيبِ، وجميعُها

(1) المجاز المُرسَل: هو اللَّفظ المُستعمَلُ في غير ما وُضع له لعلاقةٍ ما مع قرينةٍ تمنعُ إيرادَ المعنى الحقيقيّ، وسُمّيَ مُرسَلًا؛ لأنَّ الإرسالَ هو الإطلاقُ، فهو مُطلَقٌ في علاقاته؛ أي: ليس له علاقةٌ مُعيَّنةٌ، كما استُعمل معنى ﴿كَبُرَ﴾ مجازًا فيما ذُكِر في المتن، وليس على الحقيقة. يُنظر: فضل عبّاس، أساليب البيان، ص: 272 - 295.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/203.

(3) إبراهيم القطّان، تيسير التّفسير، ص: 465.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/203.

من أسبابِ اسْتمرارِ كُفرِهم، فإنَّ الإعراضَ هو التَّكذيبُ والتَّولّي والإدبارُ التّامُّ عنِ الحقِّ ورفضُ دعوةِ الرَّسولِ بالكُلّيَّة، ومناصبتُه العَداءَ بشتَّى ألوانِ الأذَى، وهذا المعنَى أوْفَى بالسّياقِ، وأقومُ قيلًا من غيرِه ممّا يصدُقُ على واقعِ مُقابلةِ المشركينَ لرسولِ اللّهِ ﷺ، إزاءَ تبليغِ رسالةِ ربِّه إليهم[1]، فقولُه تعالى: ﴿إِعْرَاضُهُمْ﴾ مرفوعٌ بـ﴿كَبُرَ﴾، وتقديمُ الجارِّ والمجرورِ عليهِ للاهتمام بالمقدَّم والتّشويقِ إلى المؤخَّرِ، والجملةُ في محلّ النّصب على أنّها خبرٌ لكان، مفسّرةٌ لاسمها الّذي هو ضميرُ الشّأنِ.."[2].

أثرُ أسلوبِ الشّرطِ في قولِه تعالى: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾:

لـفـظُ (كـان) الزّائدةِ، وأثرُه في قُوّة الدّلالةِ على المُضِيّ

وقولُه: ﴿وَإِن﴾ حرفُ الشَّرط، ويَكثرُ ورودُه في الشَّرط الَّذي لا يُظَنُّ حصولُه؛ للإشارة إلى أنَّ الرَّسولَ ﷺ ليس بمَظِنَّة ذلك، ولكنَّه على سبيل الفَرَض، لا القَطْع، وزيدتْ ﴿كَانَ﴾ بعدَ ﴿وَإِن﴾ الشَّرطيَّةِ، بينها وبين ما هو فعلُ الشَّرط في المعنى؛ ليبقى فعلُ الشَّرط على معنى المُضيِّ فلا تُخلِّصُه ﴿وَإِن﴾ الشَّرطيَّةُ إلى الاستقبال، كما هو شأنُ أفعالِ الشّرط بعد (إنْ)، و﴿كَانَ﴾ مَنحَه قوَّةَ الدَّلالة على المُضيِّ، فلا تَقلِبُه أداةُ الشَّرط إلى الاستقبال، كما هو الأصلُ فيها[3].

دلالةُ التّقديمِ والتّأخيرِ في قولِه تعالى: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾:

تـقـديـمُ الـخـبرِ (عليك) يُوحِي بالإشفاقِ على النّبيِّ المُثْقَلِ بما لا يُطاقُ

تقديمُ الجارِّ والمجرور ﴿عَلَيْكَ﴾ للاهتمامِ بالمقدَّم والتَّشويقِ إلى المُؤَخَّرِ، وفي تقديم ﴿عَلَيْكَ﴾ أيضاً إشعارٌ بالإشفاق منَ المشقّة عليه. وجملةُ ﴿كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ خبرٌ لـ﴿كَانَ﴾، مفسِّرةٌ لاسمها الَّذي هو ضميرُ الشَّأن. ويمكنُ أن يكونَ ﴿إِعْرَاضُهُمْ﴾ هو اسمَ ﴿كَانَ﴾،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/204.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/129.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/204.

وجملةُ ﴿كَبُرَ﴾ الفعليَّةُ في محلِّ النَّصب على أنَّها خبرٌ لها مُقدَّمٌ على اسمها؛ لأنّه فعلٌ رافعٌ لضميرٍ مُستَترٍ، كما هو المشهور[1]، وهو المرجَّحُ، ويترتّبُ عليه مزيّةُ تقديم خبرِ كان على اسمِها؛ وذلك بالنَّظرِ إلى أنّ الأصلَ: (وإنْ كان إعراضُهم كبُر عليك)، فيكونُ تقديمُ جملةِ الخبرِ ﴿كَبُرَ عَلَيْكَ﴾ للتّنبيه ابتداءً على عِظمِ المشقّةِ، وأنّ رسولَ الله ﷺ قد بلغَ منه الحزنُ ما بلغَ، حتّى وصلَ المرحلةَ الّتي عبّر عنها في سورة الشّعراء بقولِه: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ۝٣﴾ [الشّعراء: 3]، فضُرب له هذا المثلُ ليَكبحَ جِماحَ الحُزن ﴿فَإِنِ ٱسۡتَطَعۡتَ أَن تَبۡتَغِيَ نَفَقٗا﴾ الآية.

دلالةُ أسلُوبِ الشّرط، في قولِه تعالى: ﴿فَإِنِ ٱسۡتَطَعۡتَ أَن تَبۡتَغِيَ نَفَقٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

"قولُه تعالى: ﴿فَإِنِ ٱسۡتَطَعۡتَ﴾ جوابُ شرطِ ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكَ﴾؛ فالشَّرطُ الثّاني جوابُ الأوَّل، وجوابُ الشَّرط الثّاني محذوفٌ تقديرُه: فافعل، وحُذِفَ لظهور معناهُ وطولِ الكلام"[2]، والاستطاعةُ: القُدرةُ، والسّينُ والتّاءُ فيها للمبالغةِ في (طاعَ)؛ أي: انقادَ. والابتغاءُ هنا بمعنى: أنْ تطلُبَ نفقًا أو سُلَّمًا لِتبلُغَ خبايا الأرض وأسرابَها العميقةَ إلى خبايا وعجائبِ السَّماء، والطَّلَبُ هنا يَقتضي البحثَ، وهو بمعناه[3]، وقولُه: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ صفةٌ لـ ﴿نَفَقٗا﴾، وحرفُ الجرِّ ﴿فِي﴾ أفادَ المبالغةَ في العُمق، وإلّا فإنَّ النَّفقَ لا يكونُ إلّا في الأرض، ويجوزُ أن تتعلَّق بـ ﴿تَبۡتَغِيَ﴾، ويجوزُ أن يكونَ حالًا من ضمير الفاعل؛ أي: وأنتَ في الأرض، وكذلك القولُ في قولِه: ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾[4].

مخاطبةُ السّياقِ القرآنيّ الرّسولَ ﷺ لصيقةٌ بالواقعِ المَعيشِ من حولِه

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 2/200.
(2) العكبريّ، الإملاء: 1/240.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/204.
(4) العكبريّ، الإملاء: 1/240.

بلاغةُ المُقابلةِ بين قولِه تعالى: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ وقولِه ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾:

في استغراقِ جميعِ الجهاتِ إظهارُ حِرصِ الرّسولِ ﷺ على انتشارِ الإيمانِ

ومِن لطائف الجارِّ والمجرور ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أنّه يقابلُ ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾؛ لاستقصاء الجهات عُلوًّا وسفلًا؛ وذلك أمعَنُ في الدّلالة على استحالة الفعلِ المفترضِ، وقولُه: ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ فوصفَ به سُلَّمًا؛ أي: كائنًا في السَّماء؛ أي: واصِلًا إلى السَّماء، والمعنى: تبلُغُ به إلى السَّماء، وكذلك أفادَ بيانُ الله هنا في استخدام حرفِ الجرِّ ﴿فِي﴾ المبالغةَ في الصُّعود داخلَ السَّماء، وإلّا فإنَّ الصُّعودَ لا يكونُ إلّا إلى السَّماء وداخِلَها مع العُلوِّ، فجمعَ بين الارتقاءِ والدُّخولِ.

"والسُّلَّمُ منَ السَّلامة، وهو الَّذي يُسلِّمُكَ إلى مصعدك"[1]، وإيرادُ بيانِ الله في الآية: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ و﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ دلالةٌ على طلب الآية من جميع الجهات، وفيه استغراقُ ما يمكنُ أن يُحقِّقَ حصولَ الإيمانِ للنّاس من حوله ﷺ، وفي هذا الأمر إظهارُ شدَّةِ حِرصِ رسولِ الله ﷺ على دُخول النّاسِ جميعًا في الإيمان.

دورُ جُملةِ الشّرط في حصْرِ مُهمّةِ النّبوّةِ في البلاغِ لا في الإكراهِ:

مهمّةُ الرّسولِ الدّلالةُ، والله هو الهادِي بالأصالةِ

جاء توظيفُ جملةِ الشّرط كمَثَلٍ، لحصرِ مهمّةِ الرّسول في التّبليغ، وليس في إمكانه الهدايةُ، فمثلُه حين يحاولُ ما ليس في مُكنتِه، كمثل مَن يبتغي نفقًا في الأرض أو سُلَّمًا في السّماء، بحثًا عن وسيلةٍ لإلجاء غيره على ما يريد، وهي صورةٌ تُبيِّنُ استحالةَ قَسرِهم على الهداية، وذلك لكيلا يشقَّ الرّسولُ ﷺ على نفسه، ويمكنُ أن يكونَ مَرَدُّ ذلك لما ساقَه بيانُ الله في آياتٍ عديدةٍ من سؤال المشركينَ رسولَ الله ﷺ آياتٍ من جنس ما في الأرض، وجنسِ ما في السَّماء، فمِنَ الأوَّل قولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ۝٩٠﴾ [الإسراء: 90]، ومِنَ الثّاني: قولُه تعالى: ﴿أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الإسراء: 93].

(1) الزَّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/244.

دلالةُ إيثارِ (الابتغاءِ) على (الاتِّخاذِ)، في قولِه تعالى: ﴿أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾:

"إيثارُ بيانِ اللهِ لـ (الابتغاء) على (الاتِّخاذ) ونحوِه؛ للإيذان بأنَّ ما ذُكِرَ منَ النَّفَق والسُّلَّم ممَّا لا يُستطاعُ ابتغاؤُه، فكيفَ باتّخاذِه؟!"[1]، وكأنَّ سياقَ النَّصِّ القرآنيِّ يُخبرُنا أنَّه لو تمَّ هذا الأمرُ بالحصولِ على آيةٍ منَ الأرض، أو منَ السَّماء، فإنَّهم لن يؤمنوا بها، كما قالَ تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾ [الكهف: 57]، ولا يُفهَمُ من سياق الآيةِ الكريمةِ توجيهُ لَومٍ أو عتابٍ منَ اللهِ تعالى إلى نبيِّه ﷺ؛ بل هو زيادةُ حِرصٍ من رسولِ اللهِ ﷺ على إيمان قومِه، وإنقاذِهم منَ النّار.

مُفادُ ذكرِ النّفَقِ والسُّلَّم، هو بيانُ حرصِ النّبيِّ ﷺ لا إزجاءُ عِتابٍ له

نُكتة المُراد بابْتغاءِ النَّفقِ في الأرضِ والسُّلَّمِ في السَّماء:

ابْتغاءُ النَّفَقِ في الأرض، أي: أنْ يكونَ نفقًا مُتغلغِلًا، فذكرَ هذا المجرور ﴿فِى﴾؛ لإفادةِ المبالغةِ في العُمْقِ مع اسْتحضارِ الحالةِ، وتصويرِ حالِ الاسْتطاعةِ، إذْ منَ المعلومِ أنَّ النَّفقَ لا يكونُ إلّا في الأرض. وابْتغاءُ السُّلَّمِ في السَّماء، أي: مصْعدًا واصلًا إلى السَّماء والمعنَى: تعرُّجُ وتبلُّغُ به إلى السَّماء. ولعلَّ اختيارَ الابْتغاءِ في الأرضِ والسَّماءِ، أنَّ المشركينَ سألوا رسولَ اللهِ ﷺ آياتٍ من جِنْسِ ما في الأرض، كقولِهم: ﴿حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾﴾ [الإسراء: 90]، ومن جِنْسِ ما في السَّماء، كقولِهم: ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الإسراء: 93]، ويجوزُ أن يكونَ المرادُ بابتغاءِ النَّفقِ في الأرض، أوِ السُّلَّم في السَّماء، هو الإتيانَ بالآيةِ، كأنَّه قيل: لو اسْتطعتَ النُّفوذَ إلى ما تحتَ الأرض، أو الرُّقيَّ إلى السَّماءِ لفعلتَ، لعلَّ ذلك يكونُ لكَ آيةً يؤمنون

المبالغةُ في العُمْقِ والارْتفاعِ مُجاراةً لطلبِهم آيةً يؤمنون بها

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/200.

عندها[1]، وخلاصةُ المرادِ من ابتغاء نفقٍ في الأرض، أو ارتقاءِ سُلّمٍ في السّماء "بيانُ حرصِه ﷺ على إسلام قومِه وتهالُكِه عليهم وأنّه لو استطاع أن يأتيَهم بآيةٍ من تحت الأرض، أو من فوق السّماء لأتى بها رجاءَ إيمانِهم"[2].

دلالةُ أسلُوبِ الشَّرط وحذْفِ مفعولِ المشيئةِ في الآيةِ الكريمةِ:

إفـادةُ السّياقِ تعلُّقَ الهدايةِ الإيـمـانـيّـةِ، بـالـمَـشـيـئـةِ الإلهيَّةِ

قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾. صُدِّرتْ جملةُ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ بـ ﴿وَلَوْ﴾، وهي حرفُ امتناعٍ لامتناع؛ أي: امتناعُ جوابها لامتناع الواقعِ هنا بعدَها، فأفادتِ امتناعَ اجتماعِهم على الهدى لامتناع المشيئةِ الإلهيَّة؛ أي: لو شاء اللّهُ أن يجمعَهم على الهُدى لجمعَهم عليه، فمفعولُ المشيئة محذوفٌ؛ لقصدِ البيانِ بعد الإبهامِ على الطَّريقة المَسلوكةِ في فعلِ المشيئةِ، إذا كان تعلُّقُه بمفعولِه غيرَ غريب، وكان شرطًا لإحدى أدواتِ الشَّرطِ كما هنا، وكقولِه تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ [النّساء: 133]، وفي الجملةِ إشارةٌ إلى أنّه تعالى لَوْ شاءَ "لجعلَهم بحيث يختارون الهُدى، ولكن لمّا علمَ أنّهم يختارون الكفرَ، لم يشأْ أن يجمعَهم على ذلك"[3].

دلالةُ الجارّ والمجرورِ في قولِه تعالى: ﴿فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ﴾:

الإتـيـانُ بـآيـةٍ مـمَّـا اقـتـرحُـوه قـدرُ الـمُـقـدّرِ لا مرغوبُ البشرِ

قولُه تعالى: ﴿بِـَٔايَةٍ﴾ أي: بآية ممّا اقترحوه يُسلّمونَ بها، فهنالكَ وصفٌ محذوفٌ دلَّ عليه قولُه: ﴿إِعْرَاضُهُمْ﴾، أي: عنِ الآياتِ الَّتي جئتَهم بها[4]، والمعنى " لو شاء الله لأظهرَ لهم آيةً تُلجئُهم إلى الإيمان، لكن لم يفعلْ لخروجِه عنِ الحكمةِ"[5].

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/16، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/200، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/205.
(2) إبراهيم الأبياريّ، الموسوعة القرآنية: 9/426.
(3) إبراهيم الأبياريّ، الموسوعة القرآنية: 9/426.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 2/200، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/205.
(5) ابن عجيبة، البحر المديد: 2/113.

دَلالةُ الفاءِ في ﴿فَتَأۡتِيَهُم﴾، وتنوينِ لفْظِ: ﴿بِـَٔايَةٖۚ﴾:

التَّفسيرُ والتَّفخيمُ يُوحِي بعجزِ البشرِ عمّا لم يأذنْ به اللهُ

الفاءُ في ﴿فَتَأۡتِيَهُم﴾ تفسيريَّةٌ، أي: للآيةِ الَّتي من جِنْس ما اقْترحوهُ منَ الآيات، وتنوينُ ﴿بِـَٔايَةٖۚ﴾ للتَّفخيم، أي: أن تجعلَ ذلك آيةً لهم فافعلْ[1]، وفيه منَ الدّلالة على حِرْصِه عليه الصّلاةُ والسّلامُ، على إسلامِهم ومُبالغتِه في ذلك إلى حيثُ لو قدَرَ على أن يأتيَ بآيةٍ من تحتِ الأرضِ أو من فوقِ السّماءِ لفعَلَ؛ للإيذانِ بأنَّ ما ذُكر منَ النّفق والسُّلّم ممّا لا يُستطاعُ ابتغاؤُه، فكيف باتّخاذِه[2] وقال في نوادر الأصول: "أنَّ الخطاب به تربيَةٌ له، وترقيةٌ من حالٍ إلى حالٍ.. قلتُ: تشديدُ الخطابِ على قدْرِ عُلوِّ المقامِ، كما هو معلومٌ"[3].

مخالفةٌ تركيبيّةٌ في التّعبيرِ عنِ الهُدى بقوله تعالى: ﴿لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰۚ﴾:

الاختلافُ سُنّةٌ كونيّةٌ، ولكنّه لا يفسدُ للودِّ قضيّةً

وقولُه تعالى: ﴿لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰۚ﴾؛ أي: لَهداهم أجمعين، وهذا تَفَنُّنٌ لطيفٌ جميلٌ في أُسلوبِ التَّعبيرِ، حيث صار تركيبًا خاصّيًّا عَدَلَ به بيانُ اللّه تعالى عنِ التَّركيب المشهورِ في نحوِ قولِه تعالى: ﴿فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ١٤٩﴾ [الأنعام: 149]، وفي هذا التَّركيبِ الجليلِ إيماءٌ إلى تَمييزِ الَّذينَ آمنوا من أهلِ مكَّةَ على مَن بَقيَ فيها منَ المشركين؛ أي: لو شاءَ اللّهُ لَجمعَهم معَ المؤمنينَ على ما هدى إليه المؤمنينَ من قومِهم، وفي هذه المخالفةِ التّركيبيّةِ الّتي تجعلُ الهُدى مُستعلًى عليه (بدلالة على) إشارةٌ إلى أنّ هذا، وإنْ كان غيرَ بعيدٍ على مشيئة اللّه فإنّه مخالفٌ لسُنّته – سبحانه – في خلْقه، وقد قال تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡۗ﴾ [هود: 118 - 119].

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/200.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/200.
(3) ابن عجيبة، البحر المديد: 2/113.

دلالةُ التّذْييلِ آخرَ الآية، في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾:

النّهيُ عنِ الجهل في آخرِ الآيةِ، أنسبُ لظاهرِ ما وردَ به صَدرُها

والمرادُ بقوله تعالى: ﴿ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ يجوزُ أن يكونَ منَ الجَهل الّذي هو ضدُّ العلم، كما في قولِه تعالى لنوح - عليه السلام - : ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [هود: 46]، ويجوزُ أن يكونَ منَ الجَهلِ الّذي هو ضدُّ الحِلْم؛ أي: لا تَضِقْ صَدرًا بإعراضِهم، وهو أنسبُ لظاهرِ ما ورد به صَدرُ الآية، بقولِه تعالى: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾، وكلا المعنَيَين سائغٌ؛ لأنَّه ينتظمُ مع مُفادِ الجملتَين القُرآنيَّتين؛ الأولى: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾، والثّانية: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾، ومع كَونِ هذه الجملة تَذييلًا للكلام السّابقِ، فالمعنى: فلا يَكبُرْ عليك إعراضُهم، ولا تَضِقْ به صَدرًا، وأيضًا فكُنْ عالِمًا بأنَّ اللّه لو شاء لَجَمعَهم على الهُدى.

دلالةُ العُدولِ عنِ الأمرِ بالعِلمِ، إلى قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾:

النَّهيُ عنِ الجهل ينطوِي ضِمْنًا على استحضارِ العلْمِ

الجوابُ: هو أنَّ النَّهيَ عنِ الجَهل يَتضمَّنُه؛ فيتقرَّرُ في الذِّهنِ مرَّتَين، ولأنَّ في النَّهي عنِ الجهل بذلك تَحريضًا على استحضار العلْمِ به، فيكونُ تحصيلًا للحُسْنيَين[1]، والحاصلُ أنّ هذه التّتمّةَ التّذييليّةَ بمعنى: "فلا تكونَنَّ منَ الجاهلين بحكمةِ اللّه في خلْقِه، وبسُننِه الّتي اقتضاها علْمُه"[2]، أو بمعنى: "فلا تكونَنَّ - أيّها الرّسولُ ﷺ - منَ الجاهلين الّذين اشتدَّ حُزنُهم، وتحسَّروا حتّى أوصَلَهم ذلك إلى الجزعِ الشّديدِ"[3]، أو أنّ قولَه: ﴿مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ جارٌّ ومجرورٌ متعلّقان بمحذوفٍ، خبرِ الفعْلِ النّاقصِ ﴿تَكُونَنَّ﴾، والجملةُ لا محلَّ لها جوابُ شرطٍ مقدّرٍ: (إذا علمت ذلك فلا تكونَنّ منَ الجاهلين)[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/206 - 207.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/68.
(3) نخبة من أساتذة التّفسير، التفسير الميسّر، ص: 131.
(4) أحمد عبيد الدّعاس وآخران، إعراب القرآن الكريم: 1/300.

توجيهُ الفرقِ بين قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ﴾ و﴿فَلَا تَكُن﴾ و﴿أَن تَكُونَ﴾:

الجزعُ في مواضعِ الصّبرِ من دأبِ الجاهلين المُتهالِكين

قولُه تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ﴾ للمبالغةِ في الإنكارِ، ووردتْ في حقِّه ﷺ في مواضعَ منَ القرآن دون هذه المبالغةِ، كما في قولِه تعالى: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [آل عمران: 60]، وقولِه تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [الأعراف: 205]، ولم يكنْ رسولُ اللّهِ ﷺ منَ المُمترين الشّاكّين في أنَّ الحقَّ من ربِّه، ولم يكنْ كذلكَ منَ الغافلينَ عن ذكرِ اللّهِ في جميعِ أحوالِه؛ بلِ الغرضُ من ذلكَ الحضُّ على التزامِ الحقِّ منَ اللّهِ تعالى بيقينٍ، وعدمِ الغَفْلةِ عن ذكرِه في جميعِ الأحوالِ، باعتبارِ أنَّ الخطابَ لرسولِ اللّه ﷺ خطابٌ لأمَّتِه وهو القُدوةُ الحسنةُ لها[1]، ويظهرُ تبايُنُ ذلكَ كذلك في خطابَيْن، ما بين قولِه تعالى لمحمَّدٍ ﷺ: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾، وبين قولِه لنوحٍ عليه السلام: ﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [هود: 46]، والوجهُ هنا أنَّ ذلك لم يجئْ بحسَبِ النَّبيّيْن، وإنَّما جاءَ بحسَبِ الأمرَيْن اللَّذيْن وقعَ النَّهيُ عنهما والعتابُ فيهما، وبيَّنَ أنَّ الأمرَ الَّذي نُهيَ عنه محمَّدٌ ﷺ، أكْبرُ قدرًا وأخْطرُ مواقعةً منَ الأمرِ الَّذي واقعَه نوحٌ[2] عليه السلام، والنّهيُ عنِ الجهالةِ مُفادُه التّذكيرُ بأنّ مشيئةَ العباد تابعةٌ لمشيئةِ اللّه وهو لم يشأْ جمْعَهم على الهُدى لحكمةٍ لا يعلمُها إلّا هو فلا تُتعبْ نفسك واصبرْ على قدَرِ اللّه وحُكمِه "فإنّ إتعابَ النّفس فيما لا يفيدُ، والجزعَ في مواضعِ الصّبرِ من دأبِ الجاهلين، أو المعنى: لا تكونَنَّ منَ الجاهلين، بأنّ هدايتَهم بمشيئةِ اللّه تعالى لا بمشيئتِك"[3].

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/260.
(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 2/288.
(3) المظهريّ، التّفسير المظهريّ: 3/233.

بيانُ الغرَضِ من توكيدِ النَّهي، في قولِه تعالى ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾:

الـــزَّجـــرُ عـن حـالـةِ الجهالةِ تنزيهٌ للنّبيِّ عن مقارفتِها

المقصودُ من توكيدِ النَّهيِ في قولِه تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ﴾ التَّغليظُ والتَّبعيدُ والزَّجرُ له ﷺ، عن مثلِ هذه الحالة[1]، والمعنى" ولا تحزنْ لعدمِ حصولِ ما يطلبونَه منَ الآياتِ الّتي لو بدا لهم بعضُها، لكان إيمانُهم بها اضطراراً لخروجِه عنِ الحكمةِ التّشريعيّةِ المؤسَّسةِ على الاختيارِ، وإنّما نهاه عن هذه، وغلّظ له الخطابَ تبعيداً له عن هذه الحالةِ"[2].

بيانُ المُرادِ بلفظِ (الجاهلينَ) في سياقِ الآيةِ الكريمةِ:

الـنّـهـيُ عـنِ الـتّـحـسُّـرِ على الـغـيْـبِ دفـعًـا للجهالةِ والرّيبِ

يمكنُ أن يُرادَ بوصفِ الجاهلين بقولِه تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾، أي: في أن لا تعلمَ أنَّ اللّه لو شاءَ لجمعَهم على الهدَى، ويُحتملُ أنَّ المرادَ هنا نهيُهُ عمّا كان عليه ﷺ منَ الحرصِ الشَّديدِ على إسلامِهم، والميلِ إلى إتيانِ ما يقترحونَه منَ الآياتِ طمعًا في إيمانِهم، وهو مُرتَّبٌ على بيانِ عدمِ تعلُّقِ مشيئتِه تعالى بهدايتِهم[3]، ويمكنُ أنْ يُرادَ بالجاهلين: المُقترحونَ، ويُرادَ بالنَّهي منعُه ﷺ منَ المساعدةِ على اقْتراحِهم. وأمّا الوجهُ الأوَّل فلا يجوزُ أن يكونَ جاهلًا، بأنَّه تعالى لو شاءَ لجمعَهم على الهُدَى؛ لأنَّ هذا من قبيلِ الدّين والعقائدِ، فلا يجوزُ أن يكونَ جاهلًا بها[4]. وما أَحْسَنَ ما ذهب إليه الرّازيُّ في هذه المسألة بقولِه: "قولُه تعالى في آخرِ الآية ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾، نهيٌ له عن هذه الحالة، وهذا النَّهيُ لا يقتضي إقْدامَه على مثلِ هذه الحالة، كما أنَّ قولَه: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: 48]، لا يدلُّ على أنَّه ﷺ أطاعَهم وقَبِلَ

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 12/521.

(2) القِنَّوجيّ، فتحُ البيان: 4/133.

(3) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 2/288، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/495، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/201.

(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/495.

دينَهم، والمقصودُ هنا أنَّه لا ينبغي أنْ يشتدَّ تحسُّرُكَ على تكذيبِهم، ولا يجوزُ أن تجزَعَ من إعراضِهم عنك، فإنَّكَ لو فعلتَ ذلك قرُبَ حالُكَ من حالِ الجاهل"[1].

سرُّ العُدولِ عن قوله تعالى: (فلا تكنْ جاهلًا) إلى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾:

عصمتُه ﷺ من الجهل، عصمة إلهيّة له من كلّ نقيصة

عدَل بيانُ اللهِ تعالى عن خطابِه لرسولِه ﷺ بقولِه: (فلا تكن جاهلًا) إلى قولِه: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾؛ لأنَّ الأوَّلَ يقْتضي وصفَ رسولِ اللهِ بالجهل، وهذا لا يجوزُ في حقِّه ﷺ؛ لأنَّه ﷺ معصومٌ منَ الجهل بلا خلافٍ، ولكنَّ العصمةَ لا تمنعُ الامْتحانَ بالأمرِ والنَّهي، أو لأنَّ ضيقَ صَدْرِه، وكَثْرَةَ حُزنِه، منَ الجِبلّاتِ البشريَّة، وهي لا ترفعُها العصمةُ.

ويمكنُ أنْ لا يكونَ الرَّسولُ ﷺ هو المرادَ بهذا الخطاب، وذلك أنَّه تعالى قالَ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾، فهذا إخبارٌ وعقدٌ كُلّيٌّ، أنَّه لا يقعُ في الوجودِ إلّا ما شاءَ وُقوعَه، ولا يختصُّ هذا الإخبارُ بهذا الخطابِ بالرَّسولِ ﷺ؛ بلِ الرَّسولُ عالمٌ بمَضْمونِ هذا الإخبار، فإنَّما ذلك للسّامعِ، فالخِطابُ والنَّهيُ في: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ﴾ للسّامعِ دونَ الرَّسولِ، فكأنَّه قيل: ولو شاءَ اللهُ - أيُّها السّامعُ الَّذي لا يعلمُ أنَّ ما وقعَ في الوجودِ بمشيئةِ اللهِ - جمْعَهُمْ على الهُدَى لَجَمعهُم عليه، فلا تكونَنَّ أيُّها السّامعُ منَ الجاهلينَ، بأنَّ ما شاءَ اللهُ إيقاعَهُ وقع، وأنَّ الكائناتِ معذوقةٌ بإرادتِه[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(كَبُرَ) و(شَقَّ):

الفعلُ (كَبُرَ) آثرُ في بيانِ حالةِ الرّسولِ ﷺ، وهو حزينٌ على حالِ المُعانِدين

كَبُرَ بالضّمّ يكبُرُ؛ أي: عظُم، فهو كبير وكُبارٌ، فإذا أفرط قيل: كُبّار بالتّشديد[3]، وكلُّ ما جَسُم فقد كَبُر، وفي التَّنزيل: ﴿*قُلْ كُونُواْ

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 12/521.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/495 - 496.
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (كبر).

حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ [الإسراء: 50 - 51]، قال ثَعلبٌ: "قَولُه: ﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ مَعناهُ: كونوا أشدَّ ما يكون في أنفسكم فإنّي أُميتُكم وأُبليكم[1]، وأمّا لفظُ شقّ فإنّ "شقَّ: الشّين والقاف أصلٌ واحدٌ صحيحٌ يدُلُّ على انصداعٍ في الشَّيء، ويُقالُ: أصابَ فُلانًا شِقٌّ ومَشَقَّةٌ، وذلك الأمرُ الشَّديدُ، كأنَّه من شدَّتِه يَشُقُّ الإنسانَ شَقًّا، قال الله تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ﴾ [النّحل: 7]"[2]، وسياقُ النَّصِّ القُرآنيِّ يتناولُ حالةَ رسولِ الله ﷺ فيما كان يُصيبُه من همٍّ كبيرٍ في تكذيبِ قومِه، وإعراضِهم عنِ الحقِّ، وهذا ما كان يتسلَّلُ إلى صدرِه فيُضَيِّقُه عليه، فتظهرُ علاماتُه على وجهِه، فيكبُرُ عليه ذلك، ولا أكبَرَ في الذُّنوب وأشدَّ قُبحًا منَ الكُفرِ باللهِ والشِّركِ به؛ ولذلك كان يُخاطبُه ربُّه قائلًا: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾ [الكهف: 6]؛ أي: مُهلِكُها بسببِ عدمِ إيمانِهم، وهذه الحالُ منَ الضّيقِ في النَّفْسِ يُناسِبُ سياقَ الحديثِ عنها استخدامُ الفعْلِ ﴿كَبُرَ﴾ أكثرَ من غيرِه.

(الإعراض) و(الإدبار):

لفظُ (الإعـراضِ) أَوفَـى بالسِّياقِ والمعنى من لفظِ (الإدبارِ)

معنى (الإعراض) هو الإدبارُ التّامُّ، بحيث يكون مولّيًا عُرْضَه، وحقيقةُ الإعراض: عدمُ الالتفات إلى الشّيءِ بقصْدِ التّباعُدِ عنه، ثمّ استُعملَ استعمالاً شائعًا في التّرك والإمساكِ عنِ المخالطةِ والمحادثةِ، يقالُ: أعرض عنه كما يقال: صدَّ عنه، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ [الأنعام: 68] ولذلك كثُرَ هذا اللّفظُ في أشعارِ المُتيَّمين

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شقّ).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شقّ).

رَديفًا للصُّدودِ، وهذا أقربُ المعاني إلى المعنى الحقيقيّ[1]، وأمّا الإدبار فيُقالُ: دَبَرَ السَّهمُ الهدفَ: سَقطَ خَلفَه، ودَبَرَ فلانٌ القومَ: صارَ خلفَهم، قالَ تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ [الأنعام: 45]، والدّابرُ يُقالُ للمُتَأخِّرِ، وللتّابع، إمّا باعتبار المكانِ، أو باعتبار الزَّمانِ، أو باعتبار المرتبةِ، وأدبَرَ: أعرَضَ وولَّى دُبُرَه، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾﴾ [المدّثّر: 23]، وتَدابَرَ القومُ ولَّى بعضُهم بعضًا[2]، وبمقارنةِ هذا المعنى بذاك يتَّضحُ أنَّ الإعراضَ الَّذي كان يَشُقُّ ويَكبُرُ على رسول الله ﷺ، ليس بالتَّأخُّر بالزَّمانِ أو المكانِ أو الرُّتبةِ، أو بأيِّ تأخُّرٍ عنه ﷺ، وعن دعوتِه للإسلامِ، وإنَّما هو إعراضٌ بالكُلِّيَّة بالتَّكذيبِ والكُفرِ التّامَّين، ولذلك جاء استخدامُ البيانِ الإلهيّ لكلمة الإعراض، أَوفَى بالسّياقِ، والمعنى المُرادِ من كلمة الإدبارِ.

(الابْتغاء) و(الطَّلَب):

استخدامُ السّياقِ الفعْل (تبتغي) أَوفَى منَ الفعْلِ (تَطلُبَ)

الطَّلبُ: الفَحصُ عن وجود الشَّيء عَينًا كان أو معنى، قال تعالى: ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾﴾ [الكهف: 41]، وأطلبتُ فُلانًا: إذا أسعفتُه لِما طلَبَ، وإذا أحوَجتُه إلى الطَّلَب. وأَطلبَ الكلأُ: إذا تباعدَ حتَّى احتاجَ أن يُطلَبَ. وأمّا (الابتغاءُ) الَّذي تقدَّمَ بيانُه في شرح المفردات فهو بمعنى الطَّلب الَّذي يحتاجُ إعانةً عليه، واتّخاذَ السُّبُل للحصول عليه، كما هو في سياقِ النَّصِّ القرآنيِّ في ابتغاء النَّفقِ في الأرض أو السُّلَّم في السَّماء للحصول على آيةٍ تكونُ سببًا لإيمان المُكذِّبين. ولذلك كان استخدامُ السّياقِ للفعلِ ﴿تَبْتَغِىَ﴾ أَوفَى بالغرضِ المنشودِ، وتحقيقِه منَ الفعلِ (تَطلُبَ) أو غيرِه منَ الأفعال المرادِفة.

(1) محمّد عطيّة متوليّ، التّوليّ والإعراض عن الحقّ في القرآن الكريم، حوليّة كليّة الدّراسات الإسلاميّة والعربيّة، العدد: 33، القاهرة، 2016م، ص: 1821.

(2) الرّاغب، المفردات: (دبر).

(النّفَق) و(المغارة):

النَّفقُ: الطَّريقُ النّافذ، والسَّرَبُ في الأرضِ النّافذُ فيه له مَخْلَصٌ إلى مكانٍ[1]، قال الزّجّاجُ: "النّفقُ: الطّريقُ النّافذُ في الأرض. والنّافقاء، ممدود: أحد جِحَرةِ اليربوعِ يَخرِقه من باطن الأرض إلى جِلدةِ الأرض، فإذا بلغ الجلدةَ أرقَّها، حتّى إنْ رابَه ريبٌ، دفعَ برأسه ذلك المكانَ وخرجَ، ومنه سُمّي المنافقُ؛ لأنّه أبطنَ غيرَ ما أظهر"[2]، وأمّا الغَوْرُ: فهو المُنهَبطُ منَ الأرض، يُقال: غارَ الرَّجلُ، وأغار، وغارتْ عينُه غَوْرًا وغُئورًا، قالَ تعالى: ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا﴾ [الكهف: 41]، أي: غائرًا، وغَوْرُ كلِّ شيء قَعْرُه. والغارُ في الجبل، قالَ تعالى: ﴿إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ﴾ [التّوبة: 40]، والغارُ، والمَغارُ، والمَغارةُ كالكهفِ في الجبل، قالَ تعالى: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا﴾ [التّوبة: 57][3].

النَّـفـقُ: طـريـقٌ نـافـذٌ في الأرضِ لـه مَـخـرَجٌ، والمغارةُ خلافُه

(السُّلّم) و(المِعراج):

السُّلَّمُ: ما يُتوصَّلُ به إلى الأمكنةِ العالية، فيُرْجَى به السَّلامةُ، ثمَّ جُعِلَ اسْمًا لكلِّ ما يُتوصَّلُ به إلى شيءٍ رفيعٍ كالسَّبب، قالَ تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ [الطّور: 38][4]

ويقال للسُّلّم المرقاة وهو ما يُصعد عليه إلى الأماكن العالية، ومنه قولُ الشّاعرِ:

وَلا لَكُما مَنْجىً عَلَى الأَرْضِ فابْغيا *** بِهِ نَفَقًا أَوْفي السَّماواتِ سُلَّما[5]

وأمّا المِعراج فمن العُروجِ وهو: ارْتقاءٌ وذهابٌ في صُعودٍ، قالَ تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: 4]. والمعارِجُ: المصاعدُ،

السُّـلَّـمُ: سَـبَـبُ الـصُّـعـودِ والارْتـقـاءِ ولكلِّ ما يُرجَى الوصولُ إليه

(1) الرّاغب، المفردات: (نفق)، والرّازي، مختار الصّحاح: (نَفَقَ).
(2) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/25.
(3) الرّاغب، المفردات، والرّازي اللغوي، مختار الصّحاح: (غَوَرَ).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (سلم).
(5) البيت لكعب بن زهير. ينظر: أبو حيان، البحر المحيط: 4/114، والسمين، الدّرّ المصون: 4/610، والماوردي، النّكت والعيون: 2/109.

قالَ تعالى: ﴿ذِي ٱلۡمَعَارِجِ ۝٣﴾ [المعارج: 3]، وعَرَجَ عُروجًا وعَرَجانًا: مَشَى مَشْيَ العارِجِ أوِ العُرجان، أي: الذّاهبِ في صُعود، وعَرَجَ في السُّلَّم: ارْتَقَى[1]، قال الأخفشُ: "إن شئتَ جعلت الواحدَ (مَعْرَج)، و(مِعْرَج) بكسر الميم وفتحِها، كما تقول: (مِرْقاة) و(مَرْقاة)، و(المعارج) أيضا المصاعدُ[2] ومنه قولُه تعالى: ﴿لَجَعَلۡنَا لِمَن يَكۡفُرُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ لِبُيُوتِهِمۡ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيۡهَا يَظۡهَرُونَ ۝٣٣﴾ [الزّخرف: 33].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (عرج).
(2) الرّازيّ اللغويّ، مختار الصّحاح: (عرج).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد العاشر، سورة المائدة من الآية 107 إلى سورة الأنعام الآية 58
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة المائدة من الآية 107 إلى سورة الأنعام الآية 58 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 10 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-62-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 10 : سورة المائدة من الآية 107 إلى سورة الأنعام الآية 58.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-798-62-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7560922 بتاريخ 2023/12/18م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»